مذكرات الماضي :

على طريق الحملات المصرية
في لبنان
أيام دولة سلاطين المماليك البحرية

للأستاذ أحمد رمزي بك

إن الطريق الموصل بين مملبك ومدينة طرابلس بعد أعلى طريق معبد في الشرق الأدنى ، ويخترق مناطق من أجمل المناطق في جبال لبنان ويمر قريباً من شجر الأرز القديم عاصر القرون الطويلة . وكلما اتجهت لزيارة هذه الجهة الخالدة واجتزت بلدتي بشري وأهدن توادت الخواطر تترى عليّ ، ومرّت أمامي ذكريات حوادث التاريخ ، ففي سنة ٨٨٢ هجرية قام الأشرف قايتباي برحلته المشهورة إلى أقاصي الحدود المصرية في الشمال حيث القلاع الإسلامية في داخل الأراضي التركية الحالية .

كان وصوله إلى بعلبك في يوم السبت ١٩ جمادى الآخرة وغادرها الأحد وقت الظهر متخذاً طريق طرابلس مخترقاً الجبال العالية فأمضى الليل في عقبة « ليمونة » على ارتفاع ١٩٦٠ مترا من سطح البحر . ويقول كاتب رحلة السلطان إن الطريق إليها كان وعراً وهي وسط الجبال تحيط بها أشجار الكثرى .

ولما اجتاز العقبة اتخذ طريقه إلى الحدث (حدث الجبة) حيث صلى الصبح ومن هذه إلى كفر قاحل ويسميها صاحب الرحلة قاهر . والطريق إليها يمر بحوالي ٣٦٠ لفته ، ثم انحدر السلطان إلى طرابلس فوصلها في مساء الاثنين وأقام بها إلى الخميس ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٨٨٢ .

وهذه الرحلة تعيد إلى مخيلتي الحملات التي وجهها جند مصر إلى هذه النواحي فأنا لا أذكر للقارىء ما كتبه البطريرك اسطفانوس الدويهي عن تاريخ سنة ١٢٨٣ نقلا من بعض كتب للسلاة من فتح « جبة بشري » وحصار « أهدن » كما لا أعرض لما كتبه صالح ابن يحيى في كتابه من تاريخ أمراء الغرب وما جاء

أن للأدب تاجاً يطمح كل أديب موهوب إلى درة فيه ، وهذا التاج ، تاج الأدب العتيق يجب أن نتحرر منه فليس في الأدب أنبياء وإنما فيه أنهار تتدفق من ينابيع الإلهام الذي ينزله الله على من يشاء في أي وقت شاء .

تلك هي اللغة التي يجب أن يخاطب بها أديب اليوم أديب الأمس ، إن ما نطلبه من أديب اليوم هو الجرأة في التفكير والثقة بالقدرة على الإبداع والطموح بالعاطفة والخيال إلى آخر نجمة في أقصى الآفاق وغمس القلم في مداد حر ورفع البناء بحجارة جديدة فكم هو جميل أن تبني بناءك وتقول : هذا حجوي ، وما الفائدة من القلم وأين جماله وجلاله إذا غمس في دواة قديمة .

لقد اجتازت بنا قوة التفكير والإحساس مراحل لا تعد واتسعت عيوننا وجباهنا فتكشفت لنا آفاق لا عهد للأمس بها ووعينا ما لم يكتب للأقدمين أن يقفوا عليه وغصنا إلى أعماق الوجدان وعرضنا مواكب السماء والأرض موكباً موكباً وجئنا بالكهرباء وما وراء الكهرباء ... أبعد هذا كله نظل أتباعاً لشاعر قديم أو ناثر مفكر موهوب بيننا وبينه ألف جيل .

أن ما نطلبه من أديب اليوم هو الاستقلال في الأدب فلا وصاية ولا انتداب للأدب القديم على الأدب الحديث .

أن الاستقلال هرم له جوانب الثلاثة فإلى جانب الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادي يقوم الاستقلال الأدبي الذي لا رقابة فيه ولا قيود .

خلقت الفكرة طليقة شامخة وولد الفن عزيزاً حراً وجال الفكر والشعور يطلع علينا في كل صباح ومساء بوجه جديد واللا نهاية في الآفاق هي في الأدب أيضاً فشموسه وكواكبه وسياراته ونجومه تشع في الدهور وما وراءها .

أن هيا كل الأدب أوفر عدداً من النجوم والرمال والأمواج ولكل منا مذهبه الأدبي إذا كان في روحه دم يهرق فلنرفع الرأس في معابد الأدب والخيال أحراراً مستقلين ولننفض يدنا من الخانعين المستعبدين .

راجي الراهي

فيه نقلا عن النويرى والصلاح الكتبي فى فتوح المصريين للكسروان لأن العبارات الواردة فى كتابه صفحة ٢٩ هى بعينها التى أوردها ابن الفرات فى كتابه جزء ٨ صفحة ١٤٢ مما يدل على أنهم جميعاً ينقلون عن مصدر واحد حينما يتحدثون عن توجه الأمير بدر الدين « بيدار » قائد السلطنة بمصر ومعه العساكر المصرية وصحبته أمراء الجند يقصد جبال كسروان فى شهر شعبان سنة ٦٩١ (١٢٩٢) ميلادية . وإنما اكتفى بالنوبات التى جاءت بعد ذلك وأولها الحملة التى قام بها جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام فى عهد الملك الناصر محمد . آقوش هذا ترجم له صاحب الدرر الكامنة فقال عنه « آقش الأفرم الجركسى كان من مماليك المنصور (قلاوون) ذكر عنه أنه التمس من أستاذه ولاية الشام فأجابه السلطان « ما هو فى أبانى » وذكر صاحب الدرر نقلاً عن ابن فضل الله العمرى : إن الأفرم كان يتردد على فقير مغربى بالقرافة فى مصر فقال له الفقير : « ماذا تعطينى إذا صرت يوماً نائب السلطنة بالشام » فقال الأفرم « ومن أناحتى تسند إلى نيابة الشام » قال الفقير : لا بد فى ذلك وإذا حصل هذا تصدق بألف درهم عند السيدة نفيسة وبألف عند الإمام الشافعى .

وذكر الأفرم أنه نسى كل هذا وفى يوم من الأيام وقد عاد هارباً من حروب غازان ملك التتار بعد نوبته الأولى وفتحه دمشق وصل القاهرة ، وبينما هو يتجول بالقرافة تذكر قول المغربى فأحضر الفراهم وفرقها فى الموضعين . ويقول صاحب الدرر « كان الأفرم فارساً بطلا عاقلا جواداً يحب الصيد وكان خليقاً للملك لما فيه من الهيبة والحماية ، وكان خيراً عديم الشر والأذى يكره الظلم ولم يحفظ أنه سفك دم أحد ولا لوجه شرعى ، وكان يباشر أعمال الدولة كابن الوكيل[1] وكان لأهل دمشق فيه محبة مفرطة ومدحه جماعة من الشعراء » . أما هو فبلغ تلهفه على دمشق وأهلها مبلغاً جعله يقول « لولا القصر الأبيض (الأبلق) والميدان الأخضر ما خليت بيبرس وسلار ينفردان بمملكة مصر » . وهما مكانان بدمشق

ولما أقام بدمشق إحدى عشر عاماً وأنشأ بها[1] جامعه المشهور سنة ٧٠٦ الذى تولى الخطابة فيه قاضى القضاة شمس الدين محمد بن عطاء المزالأوزعى الحنفى .

ويعجبنى فى الأفرم هذا الود لمدينة دمشق ولهذه المنزلة التى أوجدها لنفسه هناك حينما تولى نيابة السلطنة عن مصر فى ربوع الشام وما تم على يديه من عظائم الأمور .

ذكر صاحب البداية والنهاية أنه عقب انكسار التتار وأخلائهم لدمشق حدث[2] : فى يوم الجمعة ١٧ رجب ٦٩٩ أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر . وفى يوم السبت ١٨ رجب ٦٩٩ نودى بأن تزين البلد لقدوم العساكر المصرية وفى يوم الأحد ١٩ رجب ٦٩٩ فتح باب الفرج مضافا إلى باب النصر . وفى ١٠ شعبان دخل الجيش الشامى وعلى رأسه نائب دمشق الأمير جمال الدين آقوش الأفرم . وفى يوم الجمعة ٢٩ شوال « ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم فى جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان وخرج الشيخ تقى الدين بن تيميه ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنه لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد نيتهم وعقائدهم » .

« ولما وصلوا بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ فاستتابهم » .

وفى يوم الأحد ١٣ ذى القعدة عاد الأفرم من طريق الجبال فتلقاه الناس بالشموع على طريق بعلبك وسط النهار .

وهذه هى النوبة الأولى فلننتقل إلى الثانية : —

وكان خطر التتار جاثماً على الصدور رغم انتصار المصريين فى

---

(١) الشيخ الصدر بن الوكيل : — هو العلامة أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام شمس الملة زين الدين عمر بن مكى بن عبد الصمد المعروف بابن الوكيل شيخ الشافعية فى زمانه ولد سنة ٦٦٥ وتوفى بالقاهرة ١٤ ذى الحجة ٧١٨ كان نزيل بجوار جامع الحاكم ، درس بعدة مدارس بمصر والشام ، كان يتكلم فى الحديث والطب والفلسفة وعلم الكلام .

ص ٨٠ جزء ١٤ ابن كثير . النجوم الزاهرة ص ٢٣٣ جزء ٩ والمنهل الصافى وطبقات الشافعية « صاحب كتاب الأشباه والنظائر » ولد =

= فى دمياط ودفن فى تربة القمر ناظر الجيش بالقرافة .

ومن شعره :

أقضى منايا أن أمر على الحمى ... ويلوح نور رياضه فيفوح

حتى أرى سحب الحمى كيف البكا ... وأعلم الورقاء كيف تنوح

(١) راجع ثمار المقاصد فى ذكر المساجد ص ١٩٣ . ابن كثير فى جزء ١٤ ص ٤٢ . هذا المسجد قائم الآن .

(٢) ابن كثير ص ١٢ جزء ١٤ .

البر والبحر ورغم حروبهم ضد الأرمن فى سيس ورغم أنهم فتحوا جزيرة أرواد سنة ٧٠٢ وكان بقلعة دمشق علم الدين «أرجواش» وهو من أقدر قواد مصر فصعد بالقلعة فاقتدت به بقية القلاع الشامية ، ومع كل هذا اشتد الجزع وقنت الخطيب فى الصلوات وقرىء البخارى بالمساجد حينما ظهرت طلائع التتار وأخيراً جاءت المعركة ، أى وقعة شقحب المشهورة التى وقف فيها الناصر محمد مع خليفته الزمن ، وانتصر فيها جند مصر والشام ، وكان النساء والأطفال على أسطحة المنازل والمآذن يتتبعون مراحلهم وقد كشفوا رؤوسهم وارتفعت أصواتهم بالدعاء .

ومرت سنتان على تلك الحوادث فإذا بالأفرم يقوم من دمشق بقيادة حملة إلى الجبال بعد أن استراحت الجيوش الإسلامية واستعادت قوتها .

ذكر المقريزى فى السلوك هذه النوبة على الترتيب الآتى :

سنة ٧٠٤ توجه شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيميه فى ذى الحجة من دمشق ومعه الأمير بهاء الدين قراقوش المنصورى إلى أهل جبل كسروان يدعوهم إلى الطاعة فلم يجيبوا . فجمعت العساكر لقتالهم .

سنة ٧٠٥ سار الأمير جمال الدين آق كوش الأفرم نائب الشام من دمشق فى عساكرها لقتال أهل كسروان ونادى بالمدينة من تأخر من الرجال والأجناد شنق فاجتمع له نحو الخمسين ألف راجل ، وزحف بهم لمناجزة أهل تلك الجبال ونازلهم وخرب ضياعهم وقطع كرومهم ونزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ، قتل فيها الملك الأوحد شادى بن الملك الزاهد داوود وأربعة من الجند ، وملك الجبل عنوة ووضع السيف وأسر ستمائة رجل وقتلت العساكر منهم مالاً عظيما وعاد إلى دمشق فى أربع عشر صفر ٧٠٥

***

وفى المقريزى : أن السلطان أقطع فى جمادى الآخر جبال كسروان بعد فتحها للأمير علاء الدين ابن صبيد البطيكى وسيف الدين بكتمر متيق بكتاش الفخرى[1] ، وحسام الدين لاجين ،

وعز الدين خطاب العراق ، فركبوا بالشربوش وخرجوا إليها فزرعوا لهم الجبلية ورفعت أيدى الرفضة عنها .

وسنعود بعد قليل إلى هذا الاقطاع بالذات لأهميته .

ويظهر جلياً أن أهل الجبال كانوا السبب المباشر لشن الغارة على أراضيهم فقد ذكر صالح بن يحى : فى تاريخ بيروت ما يأتى عن النوبة الثانية نقلا عن النويرى :

« كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وامتدوا فى أذى العسكر عند انهزامه من التترسنة ٦٩٩ (١٣٠٠ ميلادية) وتراخى الأمر عنهم وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وأنه لا يمكن الوصول إليهم » .

وهكذا يتضح أن الفوضى عمت جبال كسروان وأن الاعتداء حصل على الجيش عند تراجعه من حملة التتار الأولى قبل موقعة شقحب ، وفى ذلك يقول أبو الفداء وهو معاصر أنه على أثر حملة الأمير أقوش الأفرم ٧٠٥ طهرت تلك الجبال الشاهقة بين دمشق وطرابلس ، وأمنت الطرق بعد ذلك ، وهذا يفسر اجتياز هذه الطرق بالفعل بواسطة السلطان قايتباى بعد قرنين تقريباً من الزمن حينما اشتدت الحوادث بين مصر من جهة ودولة حسن الأكبر « اوزون حسن » ثم مع بنى عثمان من بعده وذلك للتأكد من أمن الطرق إذا قدر للجيوش المصرية أن تتراجع فلا تهاجم من الخلف .

ويستمر صالح بن يحيى يحدثنا فيقول :

فى ذى الحجة ٧٠٤ جهز إليهم (أى أهل كسروان) جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام زين الدين عدنان ثم توجه بعده تقى الدين (ابن تيميه) وقراقوش ونحدثنا معهم فى الرجوع إلى الطاعة فما أجابوا إلى ذلك فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة وكل مملكة من الممالك الشامية » .

وهذه العبارة نقلها البطريرك اسطفانوس الدويهى فى كتابه وأخذها منه الخوراني الدبس فى كتابه مشيراً إلى أن الأفرم أمر الجبليين أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخيين (أى أمراء الغرب فى لبنان حلفاء المصريين) وأن يدخلوا فى طاعتهم فلم يحصل اتفاق

(١) لما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنة الفخرى فامتنع وأشار بعودة الملك الناصر محمد بن قلاوون من ٢٤ النجوم الزاهرة

فاقفى الدماء حينئذ بنهب بلادهم لاستمرارهم على العصيان والذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل الجموع تزداد من كل ناحية .

وفى كتاب صالح بن يحيى: أن آقوش الأفرم توجه من دمشق بسائر الجيوش فى يوم الاثنين ٢ المحرم سنة ٧٠٥ (وهو ما جاء فى ابن كثير ص ٣٥) وجمع جمعاً كثيراً من الرجال نحو ٥٠ ألفاً وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين ، وتوجه سيف الدين أسندمر نائب طرابلس ، وشمس الدين سنقرجاه المنصورى نائب صفد ، وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس ، وكان قد نسب إلى مباطنتهم لفرد العزم واراد بجهاده فى هذا الأمر أن ينفى عنه هذه الشناعة التى وقعت به ، فطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه واجتمعت عليهم العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً يطأها ، وقطعت كروسهم وأخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرقوا فى البلاد واستخدم اسندمر جماعة منهم فى طرابلس بجامكيته وخزائنه من الأموال الديوانية فأقاموا على ذلك سنين . وأقطع بعضهم (أخباراً)[1] من حلقة طرابلس واختفى بعضهم فى البلاد واضمحل أمرهم وخمل ذكرهم »

وينقل المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت الماروني عن ابن الحريرى وابن سباط « أنه فى يوم الاثنين ثانى محرم سار آقوش الأفرم نائب دمشق بخمسين ألفا بين فارس وراجل إلى جبل الجرد وكسروان الى حيال بيروت . فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال شديد وكانت الدائرة على الأمراء فهربوا بحريمهم وأموالهم وأولادهم ونحو ٣٠٠ نفس واحتموا فى غار غربى كسروان يعرف بمغارة نبيية فوق أنطلياس بالقرب من مغارة البلانة فنادوا عن أنفسهم ولم يقدر الجيش أن ينال منهم ثم بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب الشام أن يبنوا على الغار سداً من الحجر والكلس وهالوا عليه تلاً من التراب وحملوا الأسير قطلو بك حارساً عليهم مدة أربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار .

وفى أسباب هذه النوبة يقول صاحب كتاب أخبار الأعيان فى تاريخ جبل لبنان أن أهل كسروان والجبال قتلوا أميرين من التنوخيين حين تعرضوا العساكر الإسلامية فى واقعة جبيل .

وأن نائب الشام آقوش الأفرم أراد حقن الدماء وبعث الشريف زين الدين بن عدنان للتوسط فى الصلح بين الأمراء التنوخيين وخصومهم فلم يقبل هؤلاء » .

هذه صفحة أولى لتلك الحملات وسنرى كيف أثرت فى تاريخ لبنان وعلاقات أمرائه مع مصر الإسلامية التى خاضت أشد الحروب هولا وكتبت أعظم ملاحم التاريخ .

(يتبع)

أحمد رمزى

(١) جاء فى ص ٣٣ تحقيق الأب لويس شيخو أخبار وصحته ما يذكر (أخباراً) .

إعـــلان

تعلن وزارة المعارف العمومية عن مسابقة فى تأليف كتب للمطالعة فى المدارس الابتدائية على النظام الآتى :

١ – كتاب فى جزأين للسنة الأولى يتألف كل منهما من ٨٠ صفحة .

٢ — كتاب فى جزأين للسنة الثانية يتألف كل منهما من ١٠٠ صفحة .

٣ — كتاب فى جزأين للسنة الثالثة يتألف كل منهما من ١٠٠ صفحة .

٤ — كتاب فى جزأين للسنة الرابعة يتألف كل منهما من ١٢٠ صفحة .

ويكون حجم الصفحة فى كتب السنتين الأولى والثانية ١٦/٥سم × ٢٣/٥ سم ، وتكون حروف الكتابة فى كتب هاتين السنتين وفقاً لنموذج المحفوظ بإدارة تقرير الكتب المدرسية للاطلاع عليه ، ويكون حجم الصفحة فى كتب السنتين الثالثة والرابعة ١٤/٥ سم × ٢١/٥ سم ، وتكون حروف الطبع من حجم ٢٤ عادة .

ويشترط فى هذه الكتب أن تحقق الشروط التى وضعتها الوزارة من حيث مادتها وطريقتها . وعلى كل من يرغب فى دخول هذه المسابقة أن يطلع على هذه الشروط بإدارة تقرير الكتب المدرسية بالوزارة وستكافىء الوزارة المؤلفين عن الكتب التى تختارها بمكافأة قدرها ٣٠٠ جنيه (ثلاثمائة جنيه) عن كل جزء وذلك نظير شراء حق التأليف لمدة ثلاث سنوات للمدارس الأميرية والحرة .

٢٨٤٨